التفسير بأسباب النزول

د . مفتاح علي محسن*

مقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أنزل سبحانه وتعالى القرآن الكريم لهداية الناس إلى السبيل المستقيم، وإرشادهم إلى المنهج الحق؛ الذي يوصلهم إلى الصلاح في الدنيا، ويبلغهم الفلاح والفوز في الآخرة، فقرر لهم الشريعة الخاتمة الأبدية، والعقيدة البيضاء النقية، وصانهما من الزيغ والضلال؛ فأرشدهم إلى المبادئ والقيم التي تقوم عليها الحياة الطيبة التي ارتضاها الله لعباده، وبين لهم أسس المنهج، وأركان البناء الذي يضمن الثبات على الجادة، ويستوعب كافة التطورات، ويحتوي كل المتغيرات؛ الذي إن نهجوه وثبتوا عليه؛ كانوا خير أمة أخرجت للناس.

ولقد امتنَّ الله على هذه الأمة؛ بأن صان عقيدتها النقية الصافية، وأسسها وأركانها من العبث والتحريف والنسيان، وحفظ شريعتها الكاملة التامة، وأصولها وفروعها من الجمود والانغلاق والنقصان؛ فنفخ فيها الحياة والتجدد بالمقاصد والغايات؛ وأودع فيها المخرج من كل الأزمات، والحل لجميع المعضلات؛ فتجاوزت الزمان والمكان؛ وصارت معجزة خالدة على مرِّ الزمان، يرجع إليها المسلمون؛ كلما حادوا عن الصلاح، وجافتهم العزة.

* الجامعة الأسمرية.

ومن كرم فضله وعظيم امتنانه؛ أن نزل جماع كل هذا (القرآن الكريم)؛ مفرقاً على الأيام والشهور والسنوات، ومتناسقاً مع الحوادث والمشاهد والشخصيات، حتى صارت القلوب على مر العصور والأوقات؛ تستحضر نزوله غضاً طرياً على الدوام؛ وافيا بالحاجات على التمام؛ كاشفا طريق البدع والضلالات، محذرا مما يوقع في الفتن والأزمات؛ مرشدا إلى حل المشكلات والمعضلات؛ لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكي تخرج أمة القرآن من أزمتها الراهنة، وتنهض من كبوتها الجاثمة، وتفيق من سباتها العميق، وشرودها عن جادة الطريق، وتطرح عنها دثار السقم والهوان والضيق، فتتزين بحلل العزة والكرامة؛ وتنال شرف الخلافة والإمامة؛ لابد لها من التوبة الصادقة، والعودة العاجلة إلى كتاب الله، والاعتصام به والعمل بما فيه؛ فهو الصراط المستقيم والذكر الحكيم، وهو الحبل المتين الذي إن تمسكت به؛ ثبَّتها الله على الجادة السوية؛ وصانها من الذل والهوان، وألبسها العزة والمنعة، قال ﷺ : « فإن هذا القرآن سبب؛ طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدا »[1].

ولأن أسباب نزول القرآن تمثل الواقع الحي الذي نزل الوحي الإلهي لعلاجه، والصورة المشاهدة لأولئك القدوة الحسنة؛ الذين عايشوا الوقائع والأحداث، وشاهدوا أسباب نزول آيات القرآن، فعملوا بما فيه وتمسكوا به، حتى صيَّر الله ضعفهم عزة وقوة، وتنافرهم وئاما وألفة، وتناحرهم محبة وأخوة، لهذا كان لزاماً علينا الاقتداء بهم، والسير على خطاهم؛ والاعتكاف على فهم ما فهموه ودراسة ما استنبطوه، لعلنا نتحسس الطريق الذي سلكوه، والمنهج الذي ساروا عليه؛ فبلغوا به العزة في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة، وفي هذا يقول الإمام مالك رحمه الله: « لن يصلح حال هذه الأمة؛ إلا ما صلح به أولها »[2].

إن من الآيات الكريمة ما لا يمكن فهم مراد الله عز وجل منها؛ إلا

1- أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب العلم، ذكر نفي الضلال عن الآخذ بالقرآن، حديث:122
2- كتاب المبسوط للقاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضمي 2/ 88.

بالرجوع إلى هدي المصطفى ﷺ، وسبيل الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، والنظر والتدبر في الوقائع والحوادث والمشاهد التي قارنت نزوله، والظروف التي اكتنفته؛ بل إن إغفالها ينشأ عنه فهم خاطئ، وتأويل منحرف؛ يحيد بصاحبه عن المنهج القويم، ويجره إلى الزلل، ويوقعه في الزيغ و الضلال.

لقد غفل عبدالله بن الزبير ﷺ عن الظروف التي قارنت نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158] ففهم أن السعي بين الصفا والمروة ليس بركن في الحج، لولا أن نبَّهته أمنا عائشة -رضي الله عنها- إلى الاحوال التي اكتنفت نزول الآية؛ فقالت: «لو كانت كما تقول؛ كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾»[3].

ولقد كانت عناية المفسرين بأسباب النزول عناية بالغة؛ وكان اعتمادهم عليها في تفسير النص اعتمادا كبيرا؛ فاستقصوا الروايات الواردة فيها، وصدّروا بها فهمهم للآيات، فمنهم من محص في سندها ومعناها ومناسبتها مع الزمان والمكان، ومنهم من طلبها دون تمحيص ولا نظر؛ فأفرط في ذلك؛ حتى وقع في اعتبار الضعيف والموضوع منها تفسيراً، والبعيد والدخيل منها وجهاً من وجوه التفسير، ولقد نبَّه العلامة ابن عاشور رحمه الله إلى ذلك؛ مشيرا أن ولع المفسرين في طلب أسباب النزول؛ جعلهم يكثرون ويغربون في هذا الباب؛ حتى كادوا يوهمون الناس: أن لكل آية سبب نزول، قال رحمه الله: «فكان أمر أسباب النزول دائراً بين القصد والإسراف، وكان في غض النظر عنه وإرسال حبله على غاربه؛ خطر عظيم في فهم القرآن»[4].

3- صحيح البخاري، كتاب الحج، أبواب العمرة، باب: يفعل في العمرة ما يفعل في الحج، حديث:1707

4- التحرير والتنوير لابن عاشور 46/1.

لقد اطلعت على الدراسات السابقة في أسباب النزول؛ فوجدت أنها اعتمدت في تصنيفها على الصيغة التي وردت بها؛ أو على تعددها مع اتحاد النازل، أو تعدد النازل مع اتحاد السبب، فاخترت البحث في ضوابط اعتبارها تفسيراً للنص الكريم، محاولاً بإذنه تعالى وضع تصنيف شامل لكل المرويات فيها، ورسم حد فاصل بين القصد والإسراف في روايتها عند المفسرين، والاعتبار والتكلف في اعتمادها بيانا وتفسيراً للنص.

ولقد تناولت في هذا البحث بعد المقدمة: فوائدها، وصيغها، وأنواعها، وقواعد اعتبارها تفسيراً للنص؛ داعياً الله عز وجل أن يوفّقني إلى فهم مراده، ويفتح عليَّ خزائن علمه، وأن يتقبلّه مني، وأن يثيبني عليه؛ إنه قريب مجيب.

تعريف مصطلح (أسباب النزول)

هو مركب إضافي متكون من كلمتين: (أسباب، نزول)، ولمعرفة معنى هذا المركب لابد من معرفة معنى كل لفظ على حدة، ثم معرفة المعنى الذي يفيدانه بعد ضمهما.

فالأسباب: جمع سبب، وهو كل شيء يتوصل به إلى غيره[5]، ويأتي على عدة معانٍ، منها:

1. المودة والوصل، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166].
2. الباب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 36-37].
3. الحبل: ومنه قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: 15]، وفي الحديث: قال ﷺ: «فإن هذا القرآن سبب؛ طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم»[6].

5- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (سبب) 220.

6- أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب العلم، ذكر نفي الضلال عن الآخذ بالقرآن، حديث:122

4. الوسيلة والطريق: ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 85][7].

ويطلق عند أكثر الفقهاء على العلة؛ إلا أن العلامة الشنقيطي رحمه الله بيَّن أنهما يلتقيان ويفترقان؛ فيكون بينهما عموم وخصوص وجهي[8].

يقول الدكتور خالد المزيني: «والجامع بين كل هذه المعاني؛ هو الوصول بالشيء إلى غيره»[9].

أما النزول: فهو انحطاط من علو، تقول العرب: نزل في مكان كذا: حط رحله فيه[10]، قال تعالى في شأن طلب بني إسرائيل مائدة من السماء: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: 115]، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: 29]، وقال في موضع آخر: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: 56]، قال السمين: «وجاء بمعنى الحلول في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: 177]»[11].

أما في الاصطلاح: فقد عرّفه السيوطي بأنه ما نزلت الآية أيام وقوعه؛ فيخرج بهذا ما ذكره الواحدي في سورة الفيل؛ من أن سببها قدوم الحبشة؛ لأنها من باب الإخبار عن الوقائع الماضية: كقصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك[12]، وقال الشيخ الزرقاني: «هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه، أو مبيِّنة لحكمه أيام وقوعه»[13].

ويعرفه مناع قطان بأنه: «ما نزل قرآن بشأنه؛ وقت وقوعه: كحادثة أو سؤال»[14].

7- لسان العرب لابن منظور (سبب) 1910/21.
8- انظر: مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي 49: 52.
9- المحرر في أسباب النزول القرآن للدكتور خالد المزيني 102.
10- معجم مقاييس اللغة لابن فارس (نزل) 417/5، القاموس المحيط للفيروزآبادي 1062.
11- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي 188/4.
12- أسباب النزول للواحدي 259، لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي 8.
13- مناهل العرفان للزرقاني 89/1.
14- مباحث في علوم القرآن لمناع قطان 78.

وبين الدكتور الحسن بن خلوي إلى أن مصطلح (سبب نزول) يقتصر إطلاقه على أمرين: حادثة ينزل القرآن بشأنها، أو أن يسأل النبي ﷺ؛ فينزل القرآن الكريم بالجواب[15].

فأما الحادثة التي ينزل القرآن بشأنها، فهي كسبب نزول قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس: 1-2] نزلت في شأن عبدالله بن مكتوم ﷺ أقبل على النبي ﷺ، فانشغل النبي بالآخرين من المشركين؛ وأعرض عنه؛ فأنزل الله هذه الآية عتابا له ﷺ على ذلك[16].

وأما سؤاله ﷺ فهو كسبب نزول قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 1] فقد نزلت في شأن اختلاف المسلمين في غنائم بدر، وسؤالهم النبي ﷺ عن حكمها[17].

أهمية أو فوائد أسباب النزول

إن الأهمية الكبيرة، والثمرة العظيمة لعلم أسباب النزول، تتمثل في أنه ينقلنا إلى الواقع الأفضل، والزمن الأمثل الذي فسر فيه القرآن الكريم، وفهم منه مراد الله عز وجل؛ ذلك أنه يصوّر لنا مشهد بيان الأسوة الحسنة ﷺ لنصوص وحيه سبحانه وتعالى، وفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم لمراد الله عز وجل من كلامه الكريم.

وبالمقابل فإن الجهل بأسباب النزول، أو إغفالها يوقع في الشبه والإشكالات، ويترتب عليه فهم مبتور ناقص؛ بعيد عن المراد؛ بل في كثير من الأحيان خاطئ منحرف، يجر إلى الزلل، ويوقع في الضلال والافتراء على الله عز وجل.

لقد سأل عمر بن الخطاب ﷺ عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما-: « كيف

15- أسباب النزول وأثرها في تفسير القرآن للدكتور الحسن بن خلوي 16.
16- جامع البيان لابن جرير الطبري 102/4.
17- جامع البيان لابن جرير الطبري 12/11.

تختلف هذه الأمة؛ ونبيها واحد وقبلتها واحدة. فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين: إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل، وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن، ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي؛ اختلفوا، فإذا اختلفوا؛ اقتتلوا»[18].

وبهذا يظهر أن لا غنى للباحث في التفسير، فضلاً عن المفسِّر، عن دراسة هذا العلم والإحاطة به، كأصل أو طريق للوقوف على معاني الآيات الكريمة، والوصول إلى مراده -عز وجل- منها.

قال الواحدي: «إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليه، وأولى ما تصرف العناية إليه؛ لامتناع معرفة تفسير الآية، وقصد سبيلها؛ دون الوقوف على قصتها، وبيان نزولها»[19]، وقال ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول؛ طريق قوي في فهم معاني القرآن»[20]، وقال ابن تيمية: «ومعرفة سبب النزول؛ يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب؛ يورث العلم بالمسبب»[21].

وقال الشاطبي: «ومعرفة الأسباب؛ رافعة لكل مشكل»، وقال أيضاً: «ومعنى معرفة السبب: هو معنى معرفة مقتضى الحال»[22].

ومن فوائد أسباب النزول:

1. معرفة الحكمة الباعثة على تشريع الحكم

إذ ما من حكم شرعه الله؛ إلا وله غاية ومقصد؛ راعى فيها مصالح العباد من حفظ مصلحة أو درء مفسدة، ولأن نص الحكم غالباً ما يكون عاماً مجرداً؛ متجاوزاً الزمان والمكان؛ فإنه لا يمكن إزالة الملابسات، ورد الشبهات التي تثار حوله؛ إلا باستحضار الظروف التي قارنت نزوله، فتزول الملابسات، وتدفع

18- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في ترك التفسير بالظن، حديث:2200

19- أسباب النزول للواحدي 1.

20- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 48/1.

21- مجموع فتاوى ابن تيمية 339/13.

22- الموافقات للشاطبي 258/3.

الشبهات، ويتجلى الإعجاز، ومن أمثلة ذلك ما روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 110] إذ كان ﷺ إذا صلّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن؛ فإذا سمعه المشركون سبُّوا القرآن؛ فأمره عز وجل أن يسلك سبيلاً وسطاً؛ يسمعه أصحابه، ولا يسمعه المشركون؛ فقد أبان لنا سبب النزول أن الحكمة من النهي هو كف المشركين عن سبِّ القرآن[23][24].

2. فهم النص والوقوف على معناه

لقد أعجز القرآن الكريم أساطين البلاغة والفصاحة بنظمه البديع الموجز، الذي جمع بين القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى، ولهذا أحالنا سبحانه وتعالى على السنة الشريفة للبيان والتفصيل في أكثر من موضع، والمطالع للسنة الشريفة وأسباب النزول؛ يجد في كثير من الأحيان تآزراً وتكاملا للمقاصد، وإثراءً وتثبيتا للمعاني، ومن الأمثلة على هذا ما رواه البخاري ومسلم في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: 3] عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: «هي اليتيمة في حجر وليّها؛ فيرغب في مالها وجمالها، ويريد أن يتزوجها بأدنى من سنة نسائها؛ فنهوا عن نكاحهن؛ إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق؛ وأمروا بنكاح من سواهن من النساء»[25].

فقد أبان لنا سبب النزول الارتباط بين عدم القسط في اليتامى؛ ونكاح النساء، وإلا لكان الشرط عبثاً[26].

23- جامع البيان لابن جرير الطبري 129/15.

24- البرهان في علوم القرآن للزركشي 22/1، أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص للدكتور عماد الدين محمد رشيد42.

25- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: وآتوا اليتامى أموالهم، حديث:2631، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، حديث:5454 واللفظ للبخاري.

26- التحرير والتنوير لابن عاشور 222/4.

3. إزالة الإشكال الذي قد يحدثه ظاهر النص القرآني

القرآن الكريم فيه آيات محكمات؛ لا تحتمل إلا معنى واحداً، وأخر متشابهات، وفيه المحتمل لأكثر من معنى، ولخصوصية إزالة الإشكال الذي يترتب عليه فهم خاطئ؛ أفرده العلماء رغم دخوله تحت الفائدة السابقة، وهي الوقوف على المعنى، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه البخاري: أن مروان بن الحكم بعث إلى ابن عباس يقول: «لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا؛ لنعذبن أجمعون»؛ يعني قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 188]، فبيَّن له ابن عباس رضي الله عنه أنها نزلت في اليهود؛ دعاهم ﷺ وسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره؛ فأروه أن قد استحمدوا إليه، بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، واستدل ابن عباس على هذا المعنى بالسياق الذي وردت؛ فقرأ السباق للآية (ما قبلها) وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: 187] إلى قوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 188][27]، فظاهر النص أشكل على مروان بن الحكم، وأزال سبب النزول هذا الإشكال[28].

4. رفع توهم الحصر عما يفيده الظاهر

ومعناه أنه يكشف خطأ تخصيص حكم النص فيما أورده دون غيره، ويبين أن ما أورده ليس خاصاً مرادا؛ بل أريد به العموم، ومن الأمثلة على هذا قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ [الأنعام: 145]، فظاهر

27- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ ﴾ [آل عمران: 188]، حديث:4301.

28- التحرير والتنوير لابن عاشور 194/4.

النص حصر المحرمات من الأطعمة فيما ورد في الآية؛ وبالرجوع إلى سبب النزول يظهر أن الحصر متوهَّم؛ فقد ذكر الإمام الشافعي رحمه الله أنها نزلت رداً على المشركين الذين أحلّوا ما حرَّم الله وحرَّموا ما أحلَّ، فيصير معنى الآية: أن الله عز وجل يقول لهم: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه؛ فيكون القصد إثبات التحريم فيها، لا إثبات حِل ما سواها[29].

5. تخصيص الحكم الوارد بصيغة العموم بالسبب

ومنه تخصيص عموم حكم قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 44] باليهود، وهو ما رواه البراء بن عازب عن النبي ﷺ[30] يؤيد هذا السياق الوارد فيه النص؛ إذ هو في اليهود، وعليه لا تكون (من) شرطية؛ بل موصولة بمعنى لام العهد[31].

6. معرفة إعجاز القرآن الكريم

وهذا يكون بالنظر إلى: بلاغته ونظمه من جهة، وإخباره بالغيب من جهة ثانية.

29- البرهان في علوم القرآن للزركشي 23/1.

30- روى مسلم في صحيحه كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، حديث:3298: عن البراء بن عازب ﷺ قال: مر على النبي ﷺ بيهودي محمما مجلودا، فدعاهم ﷺ، فقال: «هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟»، قالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم، فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم، والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه»، فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: 41]، يقول: ائتوا محمدا ﷺ، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: 45]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 47] في الكفار كلها.

31- التحرير والتنوير لابن عاشور 211/6.

فأما من جهة بلاغته ونظمه؛ فيكون بالنظر إلى ناحيتين:

الأولى: طريقة تأليفه ونظمه؛ فإن تناسق سياقاته وترابطها، وتآلف معانيه ووحدتها، وانتظام مقاصده وتآخيها، وتنوع علومه وتكاملها؛ لا يرى فيه شيء من التخاذل أو التفاوت؛ وهذا فوق طوق البشر؛ فكيف إذا عُلم أنه نزل مفرقا على الوقائع والمشاهد والأيام؛ يقول الزرقاني: «فسورة البقرة مثلا؛ وقد نزلت بضعة وثمانين نجما في تسع سنين؛ لا تجد فرقا بينها وبين سورة الأنعام التي نزلت جملة واحدة؛ من حيث نظام المبنى، ودقة المعنى وتمام الوحدة الفنية»[32].

ومن ناحية ثانية: فإن تذوق بلاغة النص الكريم، وإدراك أسراره؛ لا تكتمل إلا باستحضار الخطاب، وحال المخاطب، والظروف التي اكتنفتهما، ولا شك أن سبب النزول الذي يصور الواقع الحي للخطاب الإلهي؛ يجمع كل ذلك، ولقد أشار الشاطبي رحمه الله إلى ذلك منبِّهاً إلى أن الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، كالاستفهام لفظه واحد؛ ويراد به معان أخر: من تقرير وتوبيخ، وكالأمر يراد به الإباحة والتهديد والتعجيز وغيرها، وقال ابن عاشور: «ومنها -أي أسباب النزول- ما ينبِّه المفسِّر إلى إدراك خصوصيات بلاغية؛ تتبع مقتضى المقامات»[33] ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: 14-19] فإن الالتفات في قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ لا يمكن إدراك ارتباطه بما قبله؛ إلا بعد الإحاطة بأن الآية نزلت؛ لأنه ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن؛ يحرك به لسانه؛ يريد أن يحفظه؛ مخافة أن يتفلت منه، أو رغبته في حفظه؛ فكان يلاقي من ذلك شدة؛ فنبهه الله سبحانه وتعالى إلى أنه كفل له جمعه في صدره، وبيانه بلسانه[34].

32- مناهل العرفان للزرقاني 265، 266.

33- التحرير والتنوير لابن عاشور 47/1.

34- روى البخاري في صحيحه، باب (1) بدء الوحي، حديث:5، 8/1، ومسلم في صحيحه، كتاب (4) الصلاة باب (32) الاستماع للقراءة، حديث:709 عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل =

وأما من جهة إخباره بالغيب؛ فيظهر وجه الإعجاز في تحقق وقوع الغيب الذي أخبرت عنه الآية متأخرا عن تاريخ نزولها؛ ومنه أنه لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار؛ رمتهم العرب عن قوس واحدة؛ كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين؛ لا نخاف إلا الله؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: 55][35].

7. قصر تخصيص الحكم؛ إذا ورد ما يخصصه على ما عدا صورة السبب

لأن دخول السبب قطعي؛ فلا يجوز إخراجه بالاجتهاد، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 23] إذ نزلت في أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وسائر أمهات المؤمنين، وخُصِّص من رمى المحصنات بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: 4] إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: 5]؛ فلو جعل هذا مخصصاً لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 23] الذي نزل في أمنا عائشة -رضي الله عنها- فإن هذا التخصيص لا يتناول من قذفها، أو قذف سائر أمهات المؤمنين؛ فلا يكون لمن قذفهن توبة؛ لأن دخولهن في اللفظ العام قطعي[36].

=

شدة، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرك شفتيه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾.

35- رواه الحاكم في مستدركه على الصحيحين، كتاب التفسير، تفسير سورة النور، حديث:3447.

36- مباحث في علوم القرآن لمناع قطان80، أسباب النزول وأثرها في تفسير القرآن للدكتور الحسن بن خلوي 21.

8. معرفة من نزلت فيه الآية

فلا يتهم بريء، ولا يشتبه بغير من نزلت فيه، ويمثل هذا بما روي من أن مروان بن الحكم اتهم عبدالرحمن بن أبي بكر بأنه نزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: 17]، فقالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: «ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن؛ إلا أن الله أنزل عذري»[37]، وفي رواية قالت: «لو شئت أن أسمي الذي نزلت فيه لسميته»[38][39].

9. تيسير الحفظ وتسهيل الفهم

لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة؛ يقررها في العقل، وينقشها في الذهن؛ فيسهل استذكارها، وتدبُّر معانيها ومقاصدها.

10. ترسم منهج الدعوة إلى الله

فتبين للداعي إلى الحق أسس المنهج الرباني، ومراحل الدعوة، والعقبات التي قد تواجهه، وسبل معالجتها، والتغلب عليها، كما توضح للمربي والراعي الخطوات التي يجب أن يسير عليها، والمنهج الذي يجب أن يسلكه ليحقق الغاية ويقطف الثمرة، ويحقق الهدف، قال الإمام مالك رحمه الله: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها».

11. تثبت أن القرآن الكريم من عند الله عز وجل

وهذا من وجهين:

37- رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب والذي قال لوالديه: أف لكما أتعدانني أن أخرج، حديث:4553.

38- السنن الكبرى للنسائي، سورة الرعد، سورة الأحقاف، قوله: والذي قال لوالديه أف لكما، حديث:11045.

39- أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص للدكتور عماد الدين محمد رشيد56.

الأول: إبطال دعوى أنه قراطيس من إرث الماضين؛ وقد نبَّه ابن عاشور رحمه الله إلى أن أسباب نزول القرآن فيها دلالة إعجازه من ناحية الارتجال؛ لأن نزوله مفرَّقاً على الأزمنة متسبباً على الحوادث؛ يبطل دعوى أنه قراطيس من إرث الماضين[40].

الثاني: أن ما نزل منه على الأسباب عتابا له ﷺ وتخطئة لاجتهاده، وما نزل بعد طول انتظار؛ يبطل دعوى أنه من اختلاق النبي ﷺ أو أنه يملى عليه؛ وهذا إنما يتيسر بالوقوف على أسباب النزول التي سجلت تقدم تاريخ الحادثة على تاريخ نزول الآيات المتعلقة بها؛ فمن أمثلة ما كان سبب نزوله عتابا له ﷺ وتخطئة لاجتهاده؛ ما نزل في شأن أسرى بدر؛ فقد استشار ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم في شانهم؛ فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتلهم، وأشار أبو بكر الصديق رضي الله عنه بفدائهم؛ وأخذ ﷺ برأي أبي بكر؛ فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: 67][41]، وأما ما نزل بعد طول انتظار؛ فهو كتأخر نزول الآيات الكريمة التي برأت أمنا عائشة -رضي الله عنها- من الإفك؛ بعد الخوض فيه بنحو شهر[42].

صيغ أسباب النزول

وصيغة سبب النزول هي الصورة التي وردت بها تفسيراً للنص؛ متمثلة في المفردات التي استخدمها الراوي في التعبير عما سمعه في سبب نزول الآية؛ والناظر إلى أسباب النزول التي وردت تفسيراً للآيات الكريمة؛ يرى أنها على ضربين: صريح، ومحتمل.

فالصريح: ما كانت صيغته قوية في الدلالة، وله صورتان:

40- التحرير والتنوير لابن عاشور1/48.

41- انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، حديث:3396

42- روى البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، حديث:2539: عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله منه أنها قالت: «وقد مكث شهرا لا يوحى إليه في شأني شيء».

الأولى: أن يقول الراوي: سبب نزول هذه الآية كذا ويصرِّح بالسبب، يقول الدكتور خالد بن سليمان المزيني: «لم أجد سببا واحدا وردت فيه هذه الصيغة، كما أن الزرقاني لم يذكر لها مثالا»[43]؛ ويقول الدكتور عماد الدين محمد رشيد: «وهذه الصيغة أصرح ما يكون في السببية؛ إلا أني لم أجد لها مثالاً في كتب أسباب النزول، ولم يمثل لها من تكلم في علوم القرآن من مشاهير العلماء، ويبدو أنها صيغة نظرية، والله أعلم»[44].

الثانية: أن يأتي الراوي بعد ذكر الحادثة بفاء التعقيب داخلة على مادة النزول، ومنه أن يقول: سئل النبي ﷺ عن كذا؛ فنزلت الآية، أو فنزل قوله تعالى.

أما المحتمل فهو ما كانت صيغته ليست قوية في الدلالة على السببية، وإنما هي تحتمل السببية؛ ويحتمل أن تكون من الحوادث المشابهة والمماثلة للسببية، ناسب معناها معنى الآية، وقد تكون سابقة أو لاحقة لنزول الآية؛ فيقع في عبارات السلف ما يوهم أنها من أسباب النزول، وصورتها أن يقول الراوي: نزلت هذه الآية في كذا، أو أحسب هذه نزلت في كذا[45].

طريق معرفة أسباب النزول

أسباب النزول هي روايات عن الصحابة رضوان الله عليهم أي أنها من الموقوف؛ إلا أن العلماء عدوها في حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، إذ لا مجال للرأي فيها، ويبعد أن يقولها الصحابي من تلقاء نفسه، فهي محمولة على السماع أو المشاهدة، ولما كانت هكذا؛ فإنها تخضع لقواعد علم الحديث، ولا سبيل لمعرفتها إلا بالرواية والسماع، قال الواحدي: «ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب»[46]، وقال السيوطي: «قد تقرر في علوم الحديث أن سبب النزول حكمه: حكم

43- المحرر في أسباب النزول للدكتور خالد المزيني115.
44- سباب النزول وأثرها في بيان النصوص للدكتور عماد الدين محمد رشيد 67.
45- السبب عند الأصوليين للدكتور عبد العزيز الربيعة 19، 59، 69، 87، 103.
46- أسباب النزول للواحدي 43.

الحديث المرفوع؛ لا يقبل منه إلا الصحيح المتصل الإسناد؛ لا ضعيف ولا مقطوع»[47]، كما نبه رحمه الله إلى أن قول التابعي في أسباب النزول له حكم المرفوع، إذا صح السند، وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة، أو اعتضد بمرسل آخر، كما نبه إلى أنه قد تتعدد الأسباب والنازل واحد، قال السيوطي: «كثيراً ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسباباً متعددة، وطريق الاعتماد أن ينظر في العبارة الواقعة»[48]، وعليه فإن قبول الرواية في سبب النزول واعتبارها تفسيرا للآية؛ يكون بالنظر في سندها؛ ثم الصيغة التي وردت بها:

فأما من حيث السند فيقدم الصحيح على غيره، فإذا تساويا في الصحة؛ قدم حاضر القصة.

وأما من حيث الصيغة؛ فالصريح مقدَّم على المحتمل، فإذا كانت صيغتها واحدة؛ فإن كانت من الصريح؛ نظر في القرائن، ورجح أحدها، وإلا حملت على تعدد الأسباب، وإن كانت من المحتمل، وكانت مما يتناوله لفظ الآية؛ فهو من باب التفسير لا الأسباب[49].

أنواع أسباب النزول

من الروايات في أسباب النزول ما يعتمد تفسيرا للآية، ويتوقف عليه فهم معناها، والحكم المستفاد منها، ومنها روايات يوردها المفسرون؛ لا يتوقف عليها فهم معان ولا استفادة أحكام، وإنما هي من باب زيادة المعنى وضوحاً؛ وقد تكون لاحقة أوً سابقة لنزول الآية، ولا اقتران بينهما من جهة التاريخ؛ يقحمها المفسر في غير موضعها، ومنها الضعيف المحتاج إلى النظر والتمحيص في سنده ومعناه، و منها الموضوع الذي دسه أصحاب الأهواء والبدع في كتب الحديث والتفاسير؛ ترويجا لبدعتهم؛ واعتماده تفسيرا للآية؛ يجر إلى الزلل، ويوقع في الخطأ والانحراف، ويحيد عن السبيل المستقيم والمنهج السليم في فهم مراد الله عز وجل

47- المقامة السندسية في النسبة المصطفوية للسيوطي 14.
48- الإتقان للسيوطي 1/209، 210.
49- المصدر السابق 1/ 214-220.

من كلامه.

وبما أن أسباب النزول هي روايات الحوادث والوقائع التي قارنت نزول الآيات؛ فإن البحث فيها يعتمد على النظر في: سندها ومتنها، فأما من جهة السند؛ فيكون بالنظر في حال رجاله، وأما من جهة المتن؛ فيكون بالنظر في صيغتها وزمانها ومكانها وشخصياتها وموافقتها للفظ النص، وانسجامها مع سياقه.

وبالنظر إليها من جهة السند تقسم إلى: روايات صحيحة، وروايات ضعيفة وأخرى باطلة موضوعة، فأما الصحيحة؛ فقد صنَّف فيها الشيخ مقبل الوادعي كتاب (الصحيح المسند من أسباب النزول)، وأما الروايات الموضوعة الباطلة؛ فقد تصدى لها من المفسرين ابن جرير الطبري وابن كثير، ونبَّه إلى كثير منها الشيخ محمد أبو شهبة في كتابه (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير)، كما نبه إليها الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في تفسير القرآن الحكيم (المنار)، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسيره (التحرير والتنوير)[50]، والناظر إلى المؤلفات القديمة والدراسات الحديثة في أسباب النزول؛ يرى أن المؤلفين والبحاث نظروا إلى تنوعها من جهتين:

الأولى: من جهة تعلقها بزمن نزول النص، وذكروا تحته: ما تقدَّم فيه النزول على الحكم، ومثَّل له الزركشي بقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: 14]؛ لأنه متقدم على زكاة الفطر[51]، ومنه ما توافق فيه النزول والحكم؛ وهو الأغلب، كالآيات التي جاءت جواباً على أسئلة، ومنها ما تقدم فيه الحكم على النزول، ومثاله ما نزل مصدقاً لعمر بن الخطاب ﷺ حين أشار على النبي ﷺ أن يتخذ حجاباً لنسائه،

50- انظر: تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا 650/10: ورده لما روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: 57]، من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب، وانظر: التحرير والتنوير لابن عاشور 83/25، في رده لرواية سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: 23] من أنها نزلت في أن النبيء ﷺ لما قدم المدينة كانت تنوبه نوائب لا يسعها ما في يديه؛ فقالت الأنصار: إن هذا الرجل هداكم الله به فنجمع له مالا، ففعلوا ثم أتوه به؛ فنزلت الآية.

51- البرهان للزركشي 32/1.

فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 53]، ومنها ما تأخر النزول عن السبب، كالذي نزل بعد طول انتظار، ومنه تبرئة أمّنا عائشة -رضي الله عنها-.

والثانية: من جهة التعدد، وذكروا تحته: ما كان فيه النص واحدا والسبب واحد، وهو الأغلب، وما تعدد فيه النازل والسبب واحد، ومثاله ما رواه الواحدي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: 8]، التي في العنكبوت فقد بيَّن أن المفسرين على أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص، وكذا قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14]، وكذا قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: 15][52]، ومنه ما تعدد السبب والنازل واحد، ومثاله ما روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126]، فقد روي أنها نزلت يوم أحد، وفي رواية أنها نزلت يوم فتح مكة[53].

وصنَّفها ابن عاشور رحمه الله في مقدمة تفسيره إلى خمسة أصناف؛ شملت معظم روايات أسباب النزول التي ذكرها المفسرون؛ ولكن بعض ما أفرده يدخل تحت بعض؛ إذا صُنِّفت باعتبار قصد المفسر من ذكرها، وتوظيفها في الكشف عن المعنى المراد من النص؛ وبالنظر إلى هذا الاعتبار فإنها تقسم على النحو الآتي:

1. روايات أسباب نزول لا غنى للمفسر عنها (أساسية)

وهذا القسم لا يمكن فهم المراد من النص، أو فهمه فهماً صحيحاً بمعزل عنها؛ إذ يتوقف عليه بيان المعنى المراد من النص، وفي حال الجهل به؛ إما أن يبقى النص مبهماً، أو يترتب على ذلك فهم خاطئ؛ يحيد بصاحبه عن المنهج الصحيح في فهم مراد الله من كلامه، فيجره إلى الزلل، ويوقعه في الانحراف

52- أسباب النزول للواحدي 284.

53- لباب النقول للسيوطي 225.

والضلال، و يدخل تحت هذا القسم نوعان هما:

أ. ما يبين المبهمات

وهذا النوع لا يمكن فهم المراد من النص وبيان أحكامه؛ إلا بالوقوف عليه؛ لأن النص يشير إليه، ومن الأمثلة على هذا النوع: ما جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]، إذ لا يمكن فهم المراد من النص، وبيان أحكامه؛ دون الوقوف على الظروف التي اكتنفت نزوله؛ لأن معرفة اسم المجادلة، والجدال الذي حدث هو الأساس الذي يبنى عليه تفسير النص، ولا يمكن التفسير بمعزل عنه، ويدخل تحت هذا النوع كل ما جاء بصيغة: (وَمِنَ النَّاسِ) أو (ومنهم) وما في حكمها؛ أو ما كان فيه إشارة إلى غير مبين.

ب. ما يبين المجمل ويدفع الإشكال

والفرق بين هذا النوع والنوع السالف؛ أن الجهل بالسالف يجعل النص مبهماً غامضاً، أما الجهل بهذا النوع؛ فإنه يجر إلى الزلل، ويوقع في الفهم الخاطئ والانحراف، ويحيد بصاحبه عن مراد الله من كلامه، وذلك لأن النص يحتمل السبب وغيره؛ ودراسة النص بمعزل عنه؛ إما أن يوقع المفسر في توهم عموم تخصيص؛ أو إطلاق تقييد أو خفاء مناسبة، فيحمل المعنى على غير المعنى المراد، ومن الأمثلة على هذا النوع ما روي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82] فقد فهم الصحابة عموم لفظ الظلم؛ فشقَّ عليهم ذلك، فاشتكوا إليه ﷺ فبيَّن لهم أن الظلم المراد خاص، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]؛ وقد يرد على هذا أنه من باب تفسير القرآن بالقرآن، وليس من التفسير بأسباب النزول، ويجاب بأن سبب النزول هذا أصل في الاستدلال على تفسير القرآن بالقرآن[54].

ومنه أيضاً سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: 16]

54- انظر: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم، حديث:4502.

فقد روي أنه ﷺ كان يحرك لسانه بالقرآن مخافة أن يتفلت منه؛ ولا يمكن بأي حال إدراك المناسبة بين هذه الآية وما سبقها وما لحقها من الآيات بمعزل عن هذا السبب، حتى زعم بعض الرافضة أن شيئاً سقط من السورة، وذهب القفال أنها في الإنسان المذكور في قوله: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] يعرض عليه كتابه يوم القيامة فيتلعثم[55].

2. روايات أسباب نزول تزيد تفهّم معنى الآية

وهي روايات لحوادث تسببت عليها تشريعات؛ مساوية لمدلول الآيات النازلة؛ لا يتوقف عليها فهم معاني الآيات؛ إذ هي لا تبين مجملا، ولا تقيد مطلقا، ولا يتوهم من إيرادها تخصيص الحكم المستفاد من الآيات، يقول ابن عاشور رحمه الله: «وهذا القسم لا يفيد البحث فيه؛ إلا زيادة تفهم في معنى الآية، وتمثيلاً لحكمها»[56]، ومن الأمثلة على هذا النوع ما روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11]، فقد روى البخاري عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- أنه قال: «مرضت فعادني رسول الله ﷺ؛ فقلت: كيف أصنع في مالي يا رسول الله؟؛ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾»[57]، وروى الترمذي وأبو داود وابن ماجة: عن جابر: أنها نزلت في امرأة سعد بن الربيع؛ توفي وترك ابنتين وأخاه، فعمد أخوه إلى التركة؛ فاشتكت إلى النبي ﷺ فقال: «يقضي الله في ذلك»؛ فنزلت آية الميراث، فبعث رسول الله ﷺ إلى عمهما؛ فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقى فهو لك»[58].

55- رواه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي، حديث:5.

56- التحرير والتنوير لابن عاشور 48/1.

57- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة النساء، باب قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: 11]، حديث:4310

58- رواه الترمذي في سننه الجامع الصحيح، الذبائح، أبواب الفرائض عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في ميراث البنات، حديث:2092، ورواه أبو داود في سننه، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الصلب، حديث:2520، بلفظ: «ادعوا لي المرأة وصاحبها؛ فقال لعمهما: أعطهما =

3. روايات أسباب نزول لأحوال متشابهة تمثل معنى الآية

وهي روايات متعددة تختص بغرض واحد، أو شخص واحد؛ نزلت الآيات بياناً لحكمها وحكم مرتكبها، يوردها المفسرون كأسباب نزول، وهي في حقيقتها مما يتفق ومعنى الآية، وقد نبَّه ابن عاشور رحمه الله إلى أن هذا القسم لا فائدة من ذكره؛ بل إنه يوهم قصر الآيات على الحادثة؛ لعدم ظهور العموم من ألفاظ الآية، ومن الأمثلة على هذه الروايات؛ ما روي في سبب نزول آيات سورة التوبة التي جاءت بصيغة (ومنهم)؛ قال ابن عاشور رحمه الله: «ومثل قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة: 105] فلا حاجة لبيان أنها نزلت لما أظهر بعض اليهود مودة المؤمنين»[59].

4. روايات لحوادث سابقة أو لاحقة تناسب معاني الآيات

وهذه الحوادث لم تتعلق بوقت نزول الآيات يوردها السلف، فيُتوهم أنها من أسباب النزول، وإنما هي مما يدخل في معنى الآيات، ويتمثل هذا النوع في الروايات المختلفة التي يذكرها الصحابة رضوان الله عليهم في سبب نزول الآية الواحدة، وقد نبَّه الزركشي إلى أن الصحابي أو التابعي إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا؛ فإنه يريد أنها تتضمن هذا الحكم[60]، وهو رأي أكثر أهل العلم، ومنه ما رواه البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «أنزلت ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ [البقرة: 223] في إتيان النساء في أدبارهن»[61]، وقد نبَّه السيوطي إلى أن

=

الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقي فلك» ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الفرائض، باب فرائض الصلب، حديث:2717، بلفظ: فسكت النبي ﷺ حتى أنزلت آية الميراث؛ فدعا رسول ﷺ أخا سعد بن الربيع؛ فقال: «أعط ابنتي سعد ثلثي ماله، وأعط امرأته الثمن، وخذ أنت ما بقي».

59- التحرير والتنوير لابن عاشور 48.

60- البرهان في علوم القرآن للزركشي32/1.

61- رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ﴾، حديث:4526: بصيغة: «فأنزلت كذا وكذا ثم مضى» ولم

=

قول ابن عمر -رضي الله عنهما- استنباط، وقد وهمه فيه ابن عباس، مشيراً إلى أن سبب نزولها المعتمد هو ما أخرجه مسلم عن جابر ﷺ: أن اليهود كانت تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها؛ جاء الولد أحول، فأنزل الله ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾(62)(63).

5. روايات أسباب نزول موضوعة

وهي روايات مكذوبة اختلقتها إما مبتدعة تأييداً لبدعتهم، أو أعداء الإسلام؛ أرادوا من دسها في كتب الحديث والتفسير؛ الكيد للإسلام بالطعن في أصوله بهذه الروايات المختلقة، ولقد نبَّه الشيخ محمد أبو شهبة إلى أن منها الجلي الذي رده العلماء من جهتي النقل والعقل، ومنها الخفي الدقيق؛ الذي لا يدركه إلا الحفَّاظ المتقنون العارفون بقواعد الجرح والتعديل وتواريخ الرجال، وهذا الأخير لم يتفطن إليه كثير من العلماء والمفسرين؛ فأوردوه في كتبهم واعتمدوه تفسيراً للآيات؛ فتمسَّك بها من بعدهم رغم بطلانها والوهن الذي شابها.

والفائدة التي على المفسر أن يقصدها من ذكر هذه الروايات الدخيلة؛ بيان ضعفها وإثبات بطلانها، ذوداً للعقيدة وفصلاً للخبيث عن الطيب والغث عن السمين، وتنقية لتراثنا الإسلامي الثمين.

ولقد نبَّه الشيخ محمد أبو شهبة إلى كثير منها في كتابه (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير)، كما نبَّه محمد رشيد رضا وابن عاشور رحمهما الله إلى بطلان كثير منها في تفسيريهما.

ومن الأمثلة على هذه الروايات ما روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 8] من أنها نزلت في علي ﷺ حين مرض الحسن والحسين -رضي الله عنهما-؛ فنذر علي وفاطمة -رضي الله

=

يصرح، ورواها ابن جرير الطبري في تفسيره 751/3: بصيغة: «نزلت في إتيان النساء في أدبارهن».

62- رواه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب جواز جماعه امرأته في قبلها، حديث:2670.

63- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 210/1.

عنهما- إن شُفيا أن يصوما ثلاثة أيام؛ فلما ألبسهما الله ثوب العافية استقرض علي ﷺ ثلاثة آصع، فخبزت فاطمة -رضي الله عنها- صاعاً؛ وجاء مسكين فسألهم فأعطوه، ولما خبزت الثاني؛ جاء يتيم فأعطوه، وفي الثالث؛ جاء أسير فأعطوه.

قال الحكيم الترمذي: «وآثار الوضع لائحة عليه لفظاً ومعنى؛ فبناء سيدنا علي على السيدة فاطمة؛ كان بالمدينة في السنة الثامنة مع أن السورة مكية»[64].

ومنها ما روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: 75] أن ثعلبة بن حاطب طلب من النبي ﷺ أن يدعو الله أن يرزقه مالاً، وألح في الطلب وقطع وعداً: لئن رزقه الله مالا؛ أن يعطي كل ذي حق حقه، فأجابه ﷺ و دعا له؛ فاتخذ غنماً نمت حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً من أودية المدينة، وانشغل بها؛ حتى صار لا يشهد الجمعة، ولما فرضت الزكاة؛ امتنع عن دفعها، وقال: ما هذه إلا جزية، فأنزل الله تعالى في شأنه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ولما علم ثعلبة خبر نزول الآية؛ أتى النبي ﷺ تائبا، وسأله أن يقبل منه الصدقة، فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك»؛ فجعل يحثو التراب على رأسه؛ فقال له ﷺ: «هذا عملك وقد أمرتك فلم تطعني»، فلما كانت خلافة أبي بكر ﷺ عرض عليه الصدقة؛ فلم يقبلها الصديق ﷺ، وكذا لم يقبلها منه عمر ولا عثمان -رضي الله عنهما-.

وهذه الرواية لا تصح عقلاً ولا نقلاً: فأما من جهة النقل؛ فقد نبه الهيثمي إلى أن سندها فيه على بن يزيد الأبهاني وهو متروك، وقال الحافظ ابن حجر: «ضعيف»[65]، كما يردها أن ثعلبة بدري، وقد روى علي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لعل الله اطلع إلى أهل بدر؟ فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة»[66]،

64- نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول للحكيم الترمذي 193/1.

65- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، بتحرير الحافظين: العراقي وابن حجر، ط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 32/7، التقريب لابن حجر، مخطوط، لوحة: 275.

66- صحيح البخاري، كتاب (64) المغازي باب (9) فضل من شهد بدرا، حديث:3782، =

وعن جابر ﷺ: «أن عبدا لحاطب جاء رسول الله ﷺ يشكو حاطبا فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: كذبت لا يدخلها، فإنه شهد بدرا والحديبية»[67]، فكيف يعقبه الله نفاقاً في قلبه، وقد قتل ثعلبة في أحد، وفي هذه الرواية أنه هلك في عهد عثمان ﷺ وكيف لا يقبل الله توبته؛ وما ارتكبه دون الشرك؛ وليس في الآية ما يدل على رفض الصدقة؛ فكيف يقول ﷺ إن الله منعني أن أقبل صدقتك، كما نبه محمد رشيد إلى إشكالات في الرواية منها: أن السياق في سورة التوبة يوحي بأنها نزلت في السفر لغزوة تبوك، والرواية تقول أنها عقب فرضية الزكاة، والمشهور أن فرضية الزكاة في السنة الثانية للهجرة، و على فرض صحتها؛ كيف لا يقبل النبي ﷺ توبته، وقد كانت صادقة؛ لا سيما بكائه وهو يحثو التراب على رأسه، وظاهر قوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ [التوبة: 77] أنه يموت على نفاقه، ولا يتوب عن بخله وإعراضه، كما تقرر أنه ﷺ كان يعامل أهل النفاق بظاهرهم لا ببواطنهم؛ فكيف لا يقبل ﷺ ولا خلفاؤه منه الزكاة، ويعاملونه على نفاقه الباطن[68].

لقد قصد من دس هذه الرواية: أن يظهر النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم بصورة الاتكاليين الذين لا يطلبون الغايات من مسبباتها، و أنهم لم يكونوا صابرين على ما ابتلاهم الله به من الفقر، وهم الذين تركوا الدار والمال والولد نصرة للدين، كما يظهر أن من دسها أراد أن يظهر نبي الرحمة بصورة المتشفي بأصحابه، وقد كان ﷺ يشفق عليهم غاية الإشفاق؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] فكيف لا يقبل توبة ثعلبة؛ ويقول له: هذا عملك وقد أمرتك فلم تطعني.

=

77/5، صحيح مسلم، كتاب (44) فضائل الصحابة ﷺ باب (36) من فضائل أهل بدر ﷺ وقصة حاطب بن، حديث:4655، 1165، بلفظ: فقد غفرت لكم.

67- صحيح مسلم، كتاب (44) فضائل الصحابة ﷺ باب (36) من فضائل أهل بدر ﷺ وقصة حاطب، حديث:2495، 1165.

68- تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا 650/10.

قواعد في اعتبار أسباب النزول

إذا صح سند الرواية في سبب النزول؛ على المفسر الأخذ بالقواعد التالية:

القاعدة الأولى

الأخذ بسبب النزول تفسيراً للنص:

فيجعله المفسر أصلاً في التفسير؛ يفسر الآيات على الوجه الذي يوافق وقائع الحادثة، فيرجِّح ما انسجم معها، ويردُّ ما عارضها؛ ذلك أن لأسباب النزول حكم المرفوع إلى المصطفى ﷺ فهو مقدَّم على غيره، وعليه فإن تفسير السلف وفهمهم للنص؛ حجة على من بعدهم، وهو مقدَّم على كل تفسير شاذ لا دليل عليه.

ولقد نبَّه ابن تيمية رحمه الله إلى أن إحداث قول يخالف ما أجمع عليه السلف؛ خطأ وانحراف؛ لأن هذا القول يُفضي إلى أن الأمة في زمنهم؛ ضلت في فهم القرآن، وفهمت غير المراد، وأن المتأخرين فهموا المراد، وهذا يصادم نصوص الوحي من الكتاب والسنة التي أثبتت فضلهم[69].

القاعدة الثانية

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ إلا إذا ورد المخصص:

وهو قول جمهور العلماء، واستدلوا عليه بأدلة منها ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة؛ فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك؛ فأنزلت عليه ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: 114]، فقال الرجل: «ألي هذه؟ فقال ﷺ: لجميع أمتي كلهم»[70].

69- مجموع الفتاوى لابن تيمية 24/13، 26، 59.

70- صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، حديث:512. وفي كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب قوله: وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل، حديث:4418 بلفظ: «لمن عمل بها من أمتي».

أما اقتران اللفظ العام بالمخصص، فقد ضرب الشنقيطي رحمه الله مثالاً له بقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 50][71].

القاعدة الثالثة

إذا ثبت تاريخ نزول الآية؛ فهو مرجَّح لما وافقه من أوجه التفسير:

ولقد أشار إلى هذه القاعدة الدكتور: حسين بن علي الحربي في كتابه (قواعد الترجيح عند المفسرين) منبهاً إلى أن ما يخالف تاريخ النزول؛ فهو ضعيف أو مردود، وهذه القاعدة هي المعروفة عند العلماء بمعرفة المكي والمدني، إلا أن تاريخ النزول أعم؛ لأن الترجيح قد يكون في تاريخين كلاهما مكي، أو كلاهما مدني[72].

ومن الأمثلة على ذلك أن يعتبر قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌ﴾ [المائدة: 3] بياناً لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الأنعام: 119]، ولقد أشار الفخر الرازي إلى ذلك منبهاً إلى أن هذا القول فيه إشكال؛ لأن سورة الأنعام مكية والمائدة مدنية، فكيف ينزل بيان ما لم ينزل بعد[73].

أما الترجيح في المدني فقط؛ فمثاله ما روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9] فقد جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ أنها: نزلت في قصة مرور النبي ﷺ على مجلس فيه عبدالله بن أبي سلول؛ فقال عبدالله بن أبي: خل

71- مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي 328.

72- قواعد الترجيح عند المفسرين للدكتور حسين بن علي الحربي 258.

73- مفاتيح الغيب للفخر الرازي 175/13.

سبيل حمارك؛ فقد آذانا نتنه؛ فقال عبدالله بن رواحة ﷺ: والله إن بول حماره لأطيب من مسكك، فاستبَّا وتجادلا ومعهما قوماهما الأوس والخزرج، فجاء ﷺ فأصلح بينهم[74].

قال ابن عاشور رحمه الله: «ويناكد هذا أن تلك الواقعة كانت في أول قدوم رسول الله ﷺ المدينة، وهذه السورة (سورة الحجرات) نزلت سنة تسع من الهجرة»[75]، وروي أنها نزلت في فتنة بين الأوس والخزرج؛ بسبب خصومة بين رجل وامرأته أحدهما من الأوس والأخر من الخزرج، انتصر لكل منهما قومه؛ حتى تدافعوا؛ فجاء ﷺ وأصلح بينهم[76]، قال ابن عاشور: «وهذا أظهر من الرواية الأولى»[77].

القاعدة الرابعة

إذا تعددت المرويات في سبب النزول، فالقصد إلى الصحيح، فإذا تساوت فالقصد إلى الصريح، فإذا تقارب الزمان حمل على تعدد النزول، وإذا تباعد حكم بتكرار النزول أو الترجيح بـ:

أ. تقديم السبب الموافق للفظ الآية.
ب. تقديم قول صاحب القصة على غيره.
ج. تقديم قول الشاهد على الغائب.
د. تقديم السبب الذي يوافق السياق على غيره.

الخاتمة

بعد هذا العرض تبين أن علم أسباب النزول علم مستقل متكامل له:

74- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس، حديث:2566، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ، حديث: 3445، بلفظ: «فقال: رجل من الأنصار والله، لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك».
75- التحرير والتنوير لابن عاشور 238/26.
76- جامع البيان لابن جرير الطبري 260/21.
77- التحرير والتنوير لابن عاشور 239/26.

قواعده، ومسائله، ومصنفاته، وأعلامه؛ وله أهمية كبيرة وأثر بالغ في بيان معاني الآيات الكريمة؛ وعليه فلا غنى للباحث في التفسير فضلا عن المفسر من الوقوف عليه والإحاطة به، إذ هو من الأسس التي يقوم عليها المنهج القويم في تفسير كتاب الله عز وجل؛ بل هو في بعض الأحيان السبيل الوحيد؛ للكشف عن معاني الآيات الكريمة، وفهم مراد الله منها وعليه:

1. فإنه لا يمكن فهم النص الكريم الفهم الصحيح؛ إلا بالوقوف على سبب النزول؛ لأنه يمثل الواقع الحي، ويستحضر الحدث المشاهد لأولئك الذين فهموا نصوص الوحي الإلهي الكريم على مراده عز وجل، وعملوا بمقتضى ذلك الفهم المراد.
2. اعتبار أسباب النزول تفسيرا لنصوص الوحي الإلهي الكريم؛ يعتمد على النظر إلى الحادثة، ومدى موافقتها للفظ الآية، وتناسب تاريخ وقوعها مع تاريخ نزول الآية، وانسجامها مع السياق الذي وردت فيه الآية، أما صحة السند فليست قطعية في الدلالة؛ لكنها قرينة قوية تضاف إلى ما سبق.
3. يحتاج علم أسباب النزول إلى التحقيق والتحرير، وتحتاج رواياته إلى النقد والتمحيص؛ فقد دخله الكثير مما ليس منه، ودس فيه الكثير من الروايات الضعيفة والموضوعة، والطريق إلى ذلك هو البحث والنظر في سند هذه الروايات، وتاريخها، وموافقتها للفظ الآية، وانسجامها مع السياق الواردة فيه.

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المصادر والمراجع

1. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، ط1، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.
2. أسباب النزول أثرها في بيان النصوص لعماد الدين محمد رشيد، ط1، 1420هـ دار الشهاب.
3. أسباب النزول للواحدي، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، ط2، 1412هـ دار الإصلاح، الدمام، المملكة العربية السعودية.
4. البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، 1404هـ مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر.
5. التحرير والتنوير لابن عاشور، ط، 1984م، الدار التونسية للنشر، تونس.
6. تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، ط2، 1366هـ دار المنار، القاهرة، مصر.
7. جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، 1422هـ القاهرة، مصر.
8. قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين بن علي بن حسين الحربي، ط1، 1417هـ دار القاسم، الرياض، المملكة العربية السعودية.
9. لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، ط1، 1422هـ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.
10. مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن محمد بن قاسم، ط1، 1425هـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
11. المحرر في أسباب النزول لخالد بن سليمان المزيني، ط1، 1427هـ دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية.
12. مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر للشنقيطي، إشراف: بكر بن عبدالله بن زيد، ط1، 1426هـ دار عالم الفوائد، مكة، المملكة العربية السعودية.

13. مفاتيح الغيب للرازي، ط1، 1401هـ دار الفكر، بيروت، لبنان.
14. مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبدالعظيم الزرقاني، تحقيق فواز أحمد زمرلي، ط1، 1415هـ دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
15. الموافقات للشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن سليمان، ط1، 1417هـ دار ابن عفان للنشر والتوزيع، الخبر، المملكة العربية السعودية.
16. نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول للحكيم الترمذي، تحقيق: إسماعيل إبراهيم متولي عوض، ط1، 4129هـ مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.